وجدنا ان السياب يلقي زهرة ، وغيره يلقي فراشة ، اما البعض من شعرائنا المرموقين فيلقون « قاموسا».

ان الالم ليس اميبا تكتشف في المختبر، كما انه ليس قبعة تنكس على الرأس ليراها الجميع ؛ انه سحب تمطر في الاغوار القصية من بيداء الدم ، وليس المفروض بالفنان ان يكون قاتلا حتى يكون متألما . فالبصيرة الثاقبة يمكنها ان تدل بالاصبع على الطائر المنهك واليائس ، حتى ولو كان فوق كل الرفوف وفي مقدمتها . هناك حالات معينة يؤدي فيها ضغط الآلام البشرية الى ارتخاء في مفاصل القصيدة ، والى توتر وسأم في ملامحها ؛ والآلام التي تعرض لها السياب (فقره ، مرضه ، بؤسه) تغفر له الكثير من هذه النتائج ، وتجعل قصائده الاخيرة براء من اي منهاج نقدي مسبق ، مع العلم ان تاريخ الفن سيكون اشد صرامة وسادية في تقييمه لاية انجازات في المستقبل .

ولكن ما هو الشيء الذي يغفر لبعض شعرائنا المرموقين كون قصائدهم دائما وابدا متوترة الاعصاب ، جاحظة العينين ، معوجة الساقين ، حتى ليكاد بطنها يلامس الارض ، دون ان يكون على ظهرها شيء او ان تكون حبلى باي شيء ؟

وانصافا للموتى ، وتنبيها للمحتضرين والاحياء ، نقول : لو اعتبرنا الفن ضريبة يدفعها الفنان عن حبه وكراهيته ، وسخطه وغبطته ، وغربته ووطنه ، لكان السياب من اكبر دافعي الضرائب في شعرنا الحديث ، ولكان بعض شعرائنا المرموقين من اكبر جباة الضرائب في شعرنا الحديث .

محمد الماغوط

ديوانه الأخير

من يخاف بدر شاكر السياب اليوم ؟ لا احد .

لقد اكتشف السياب فجأة — بعد موته — ان له اصدقاء كثيرين . حتى ان واحدا من الد اعدائه ومنافسيه كان سباقا عشية وفاته ليقف معلنا في تصريح صحفي له ، ان بدر كان شاعرا كبيرا .

وضحك وجه بدر الطويل الشاحب النحيل من هذا الانعام الكبير . فما فائدة هذا الوسام الماسوني الجزيل الاحترام على مخدة سوداء كبيرة يحملها صبي يتيم من « جمعية الرفق بالادباء الموتى» ، في موكب هزيل ،لشاعر كان محسوبا في عداد الاموات منذ سنوات ، لم يشأ الطبيب ان يحرر شهادة وفاته الامنذ حوالي شهرين ؟

ربما ، لا شيء . الا التأكد من ان هذا الوسام لم يمنح لحيّ ابدا . ان الموتى لم تعد تخيف احدا في هذا العصر .

ولعل موت بدر شاكر السياب قد اصبح ضرورة ملحة في السنوات الاخيرة، من اجل الشعر وتاريخه، ومن اجل بعض « اصدقائه » الشعراء بالدرجة الاولى .

لقد زال الكابوس الذي خيم فوق صدور اصدقائه ، وانتهى النزاع على قصب السبق في زعامة الشعر العربي الحديث، في مضمونه « الجديد » ومضمونه « العربي » . واصبح من الممكن اليوم ان يسمى « كبيرا » فقط . لقد سقط من الحلبة غريم قوي ، ونقص عدد الطامحين للمجد .

لا يهم اليوم ان يسمى السياب رائدا وعظيما وسباقا ، وقد مات بدر . ومن سيذكره بعد سنة ؟ يقولون (او يتمنون) : لا احد ! المهم اليوم ان يقال عن الذين كانوا يقاسمونه منافسة « المجد » انهم عظماء ورواد ، وقبل كل ذلك انهم شعراء . ان موت بدر قد وضعهم كلهم امام محك التجربة الخطرة الاولى.

وجاءت نهاية بدر شاكر السياب الملحاحة الضرورية ، في وقت ولا انسب منه . لقد مات في اليوم الذي صدر فيه ديوانه الاخير، « شناشيل ابنة الجلبي ». لقد كان لا بد ان يموت من اجل هذا الديوان .

فقد حمل اجمل واروع واحسن ما كتب السياب في عمره القصير . وكان من الصعب ان يتجاوزه. لقد كان شعرا عظيما .

لقد كان بدر يعرف انه سيموت ، ويعرف من يدعوه للحاق به . انما كان ينتظر من يدق عليه الباب ليؤخر رحيله . ولكن كانت امه تدعوه ان يلقاهـا في المقبرة الشكلى ، وان يقتحم الليل جوعان معها ، من دون رفيق ليأكل من زادها . ودرب بدر نحو امه درب موحش ، فلا اصدقـاء ، الا مرضه وقدماه العاجزة ، والمكان ناء ، وبينه وبينه مدن وصحارى وبحار .

وينطلق السياب وراء امه ، يبحث عنها ورا سور من حجارة عتيقة ، لا باب فيه ولا نوافـذ يدق عليها، ولا درب يعود منه . ينطلق الشاعر بلا وداع ، فالصغار يولولون، يسألون عنه، وينتظرون عودته.

وتبـدأ ليالي السهاد ، من لندن الى باريس ، نهاية بالعراق . وينتظر السياب النهاية التي مـا عاشها شاعر من قبل . لقد كان يترصد الموت ويراه ويسير نحوه ويكتب عنه شعرا .

من لندن يرسل صيحته العطشى ، « مـاء ... اين الماء ». ومن خلال عطشه لرفيق او جار ، في الضباب المعتم كان يظن كأن الصبح قـد اشرق في العراق ، وتـتراءى له جيكور من بعيد ، لحى الشيوخ تضيء واعين النسوة تحدق .

وفي باريس ، تنسل اليه الذكريات كالعبير ، طيفا مزمنا لاحلامه ، لا يذكر منها الا وداعها ، القاسم المشترك الوحيـد بينهما . وتعيد باريس اليه عمر الطفولة ، وهو على ابواب الشلل الابدي . تـذكره « بوفيقة » و « اقبال » ، معيدة عمره سنينا الى الوراء .

ويصل العراق ، ارضه وبلده ووطنه ، ليعود لمعاناة قضيته . تذكره عودته بماضيه ، بطفولته الشقية وشبابه المفجوع . كيف كان يجوع الاطفال ويظل يحلم هو بالقمر والهوى . ويتمرد انسان شبابه على البنادق والخوذ ، على كل انواع العبودية ، حتى يزدحم دربـه بالعسكر ، ويعرف الجوع والرعب . ويمضي بالامى عامان ، حتى يهده الداء ويعلكه الحديد بين مستشفى ومستشفى ، يعود بعدها الى بلاده، يحمل جنازته ليعيش اعواما من الحرمان والفاقة قبل ان يمضي في طريق النهاية .

وبين هذه البلدان الثلاثة يحدد السياب خطوط مراحل مرضه كلها . ومن خلال مرضه ، مراحل حياته، حـين تركزت في نهاية حتمية نحو الموت الذي انتظره اعوامـا ، فتوضحت هذه الرؤيا ، واعاد من خلالها تحديد مواقفه المتعددة من الحياة وهو على شفير الموت الحتمي . لقـد كان الشاعر الاول الذي كتب عن الموت وهـو يراه بعينه يزحف نحوه .

ومن ليالي السهاد، وريح الشمال تجرفه نحو النهاية الحتمية ، لقد كان يرى رؤيا لا وضوح بعدهـا ، كيف سيخـلو البيت منه . ولكن جيكور كانت دائما هناك ، مرتع صباه وحبه الاول والاخـير . جيكور اشجارها دائمة الخضرة ، وليلها لا ينام ، وشاعرها يغني كالطيور .

ويستعيد مع المرض ذكريات حبه الاول ، وينساق وراء اعتراف بان كل الذين احب في الماضي ، ما احبوه ، وقد اضاع عمره يبحث بين اكوام المحار عن لؤلؤة ، لعلها تبزغ كالنجمة ، وتـدمي يديه وتنزع الاظافر عنها ، ولا ينز هناك غير الماء والطين .

وتثقل به الذكريات في فراشه الحـديدي في لندن ، مطـلا من وراء ذكرى ابيه وجيكور . فيودع زوجته ويعود لجيكور امه ، ولكنه يعود هـذه المرة كسيحا، وكيف يمشي، وقد مزق الداء قدميه ؟كعمود ملح يسير ، مشبها اياها بسدوم وعامورة .

هـذا هو جو بدر شاكر السياب . وهنا منطلق «شناشيل ابنة الجلبي» . من المرض ،ومن الجرأة الحتمية في الموت ، ومن الانطلاق الى ابعد حدود الانسانية ، استطاع ، في آفاق شعرية لم يصلها من قبل ، ان يخوض في تجارب رائعة في الشكل والاطار الشعري. لقد وقف بثقة تامة امام اجرا تجربة شعرية جـديدة في الشعر الحديث . كان المضمون انسيابا تلقائيـا للفكرة التي كانت تلح عليه ساعات حياته الاخيرة ،

فكان فنانا يقولب كيفما اراد قالبه الشعري . والثقة التي كتب بها بدر ديوانه الاخير تكاد تعادل يقينه بحتمية المضمون الذي اختاره له ، وبحتمية وصوله اليه . وبقدر ما شلت قدماه ، ازداد شجاعة ، ووقف كبيرا ، بين اقزام جبناء من شعراء قلدوه، وتجارب اجهضت من التردد والخوف .

بدر في « شناشيل ابنة الجلبي » كان انسانا ، وكان شاعرا . وهذه قمة لم تصل اليها حبال مراوغة الشعراء الآخرين المتطاولين . فحبالهم الشعرية غير مجدولة بالاصالة الانسانية وبالنبؤة الجريئة المخلصة .

فبين دواوين بدر العديدة ، تبقى المسافة التي قطعها بين « انشودة المطر » – مجموعة مختاراته الشعرية الكبرى سنة ١٩٦٠ – وبين « شناشيل ابنة الجلبي » مسافة قلما يحتازها شاعر في اقل من خمس سنوات . في « انشودة المطر » كان بدر قد بدء يمشي على ارض صلبة ، يطل على الدنيا كشاعر حديث يحمل قالبا جديدا ، يهمه ان يتقن حرفته كصانع ماهر في محترف الصياغة الشعرية الجديدة .وبقي هناك في القمة ، منتقلا بين منحدرات « كمنزل الاقنان » و « المعبد الغريق » ، حتى وصل الى « شناشيل ابنة الجلبي » .

وهنا كانت مهارته الصناعية قد بلغت من الثقة والمرونة والدقة ما جعله يدخل في مغامرة شعرية ، هي من اقسى وامتع وافجع ما عرفه الشعر العربي الحديث في العشر سنوات الاخيرة .

غير انه بقي بين هاتين العلامتين الفارقتين ، شاعراً مفتوناً بالموت . فقد كان الموت اسطورة حياته التي الحت عليه – طوال عمره – الحاحا مخيفا . ومن هنا تردد صدى الاساطير في قصائده ، وكان من اول من ادخلها في الشعر العربي الحديث . فكانت رموز الموت ومعانيها تتجسد في تجارب حية ومواضيع مختلفة يعيشها الشاعر ويعايشها . وكان استخدامه لاسطورة سيزيف مثلا في « رسالة من مقبرة » (في ديوانه « انشودة المطر ») من ابرع ما حققه الشعر العربي المعاصر في الاستعانة بالمضمون الاسطوري ، للتعبير عن فكرة الثورة والقيامة . وتركزت الاسطورة ، لتصبح جزءا من مناخه النفسي وثقافته الشعرية ، ولتصبح مطواعة في يده ، فيستخدم جانبها الشعبي ، كشناشيل ابنة الجلبي . والقارىء الذي يرافق الشاعر يشعر بانه امام رمزين دائمين : الموت ، والقدرة على الانتصار عليه ، فضلا عن طموحه بان يلج باب الحياة والخصب في الحياة عن طريق باب الموت . فهو شاعر مفتون بالموت الى درجة الطفولة الساذجة .

غير ان بدر شاكر السياب ، في انشغاله بقضاياه الصغيرة الخاصة ، عن طريق اقتحام الموت ، لا ينسى – ولا يريد ان ينسى – ارجاء عالم الانسان الواسعة ، المزقة ، وقضاياه الحزينة ومشاكله الاجتماعية . و « جيكور » ، عبر امه وزوجته وولده ، في « شناشيل ابنة الجلبي »، « كبويب» في « انشودة المطر ». وبويب نهر جيكور ، يدفعه حبه للفناء ان يموت غرقا فيه ، حيث يصبح موته انتصارا . وموته في اعتقاده قربان على مذبح عالم بعيد عن الدموع والدماء ، حيث للانسان كرامة ، وللانسان حق وقيمة ، وحيث الكفاح قدر . فالاسطورة في « شناشيل ابنة الجلبي » من حكايات شعبية واخرى جاهلية ، « كارم ذات العماد » ، تتسلل بشكل غير مرئي، ولا تبرز بشكل حسي ابدا . فهو يفترض الاسطورة افتراضا كجزء من عطائه الشعري ، وتراثا اصيلا في عمقه الفكري والنفسي .

وتتراءى له جيكور من خلال اسرة الحديد بين مستشفى ومستشفى دائما ، حيث كل شيء فيها هادىء وحزين . فجيكور رمز لحياة الصبا والهناء والبساطة والهدوء ، التي يطمح ان يعود اليها ، ويتسكع في دروبها الملتوية الصامتة . فهي رمز الحنين الاول . ويموت بدر الشاعر ، حاملا بين جنبيه قلبا يفيض بالشوق الى قريته الوادعة الغافية، ويغص بالاسى لموته منفيا بعيدا عنها . لقد كانت حبه وطموحه الاول والاخير .

وتضع سطور « شناشيل ابنة الجلبي » خاتمة رائعة لحياة بدر شاكر السياب ، كشاعر عملاق ناطح بشموخ رأسه علياء الشعر ، وبقي « اصدقاؤه » الشعراء ، من الذين اكتشفوا اصدقاء فجأة بعد موته ، مجرد حملة لبساط الرحمة في موكب الموت المهيب ، بأوسمة مزيفة لن تبيح لهم دخول ملكوت الشعر الحقيقي .

رياض نجيب الريس